

ملخص المداخلة:

يمثل التصوف الإسلامي ظاهرة عميقة وممتدة ومتعددة المظاهر والتجليات في تاريخنا الفكري وواقعنا الاجتماعي والحضاري، لكننا مع ذلك لا نراها تحتل مكانتها الطبيعية في سلم أولويات البحث العلمي والجهد الثقافي، ويعود هذا إلى أسباب عدة من أهمها أن الخطاب النهضوي الذي أعاد صوغ أولويات الثقافة العربية الإسلامية، كان في معظمه خطاباً متعلماً متعلناً ينأى بنفسه بعيداً مما سماه البعض خطاباً «أسطورياً عجائبياً» وهكذا فقد تم الرفع من شأن الاعتزال والمعتزلة، هذه الظاهرة التي انتهت واقعياً وأصبحت مرحلة تاريخية، في حين تم القفز من فوق التصوف والمتصوفة على رغم كون التصوف يشكل نسفاً معرفياً اجتماعياً بل وسياسياً مستمراً وفعالاً.

وكثير ما نلمح اليوم الأدباء الجزائريين الشعبيين خاصة الشعراء منهم معروفين بإنتاجهم وأسلوبهم، حيث نعرفهم ونحن نقرأ لفحول الشعر الملحون أمثال: مصطفى بن إبراهيم، والمنداسي، وابن مسايب، وابن خلوف، وابن سهلة، والزرهوني، وأحمد بن قيطون، وابن يوسف، والخالدي وبطبجي، وابن مصطفى العلاوي كل هؤلاء من صنّاع الكلام الرائق الجميل، ونقش أخبار الحدث في الذاكرة الجماعية، حيث ساروا في خدمة الدين والتعبد له مخلصين له إلى يوم الحشر، والدين بأوسع معانيه من أهم الأغراض التي طرقها الشعراء، لاسيما مدح الرسول (ص)، والتشوق إلى زيارة قبره وإحياء مولده، والتحدث عن معجزاته وعن الإسراء والمعراج وعن القرآن الكريم، وعن جهاد الرسول وغزواته، ويشمل ذلك أيضاً الشعر الصوفي والتوجه إلى الله جل جلاله وقت الشدة، والتوسل والتضرع والتشفع وتحذير من هوى النفس ومدح وثناء الأولياء الصالحين والتوسل بهم.

والشاعر " ابن مصطفى العلاوي " واحد من الشعراء الذين اهتموا بمدح أولياء الله الصالحين وتفانيه في خدمة الدين صباحاً ومساءً، إجلالاً وإكباراً، وهو معروف بالكرامات في كل مكان.

والتطرق إلى موضوعات الشعر الشعبي يسوقنا إلى الكلام عن مظاهر الحياة لدى سكان حوض الشلف خاصة مستغانم، وصور التمسك بمبادئ الدين الحنيف، وذلك ليس بالغريب عن أهالي المنطقة، فهم كغيرهم من الجزائريين يتميزون بشدة الارتباط والتمسك بالأنظمة العقائدية ويقدمون المناسبات الدينية تقديساً مطلقاً ويدعون إلى مكارم الخلاق والصحة في النفوس.

وسنحاول في هذه المداخلة تبيان خصال الشاعر ابن مصطفى العلاوي الصوفية من خلال شعره

حتى يتيسر لنا معرفة أفاظ لغته، فهل كان له نصيب من هذا؟

هذا ما سنعرفه من خلال هذه المداخلة إن شاء الله.

نص المداخلة:

بدأ التصوف الإسلامي حركة زهدية، ولجأ إليه جماعة من المسلمين تاركين ملذات الدنيا سعياً للفوز بالجنة، واقتداء بالنبي وصحابته في الزهد، ثم تطور وأصبح نظاماً له اتجاهات عقائدية وعقلية ونفسية وسلوكية، ومن مظاهر الزهد: الإكثار من الصوم والنقش في المأكَل والملبس، ونبذ ملذات الحياة والتجرد عن ضرورتها، إلا أن الزهد في الإسلام لا يعني هجر الدنيا وترك العمل، فالإسلام دين وسط واعتدال لا يدعو للرهبانية والتطرف⁽¹⁾.

والتصوف نزوع ذاتي تأملي يعتمد على خيال الفرد وتجربته وذوقه، ويهتم على الخصوص بالنفس وصفاتها، ظهر المصطلح عند المسلمين في القرن الثاني للهجرة، أما قبل ذلك فكان الصوفي يسمى زاهداً، لأن التصوف ظهر في مرحلة من مراحل تطور الزهد، وقد قال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في هذا المضمار "التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية"⁽²⁾.

من هنا يتبين أن التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه، والفقهاء لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام، والأصول "علم التوحيد" لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان بالإيقان، كالطب لحفظ الأبدان، وكانحو لإصلاح اللسان إلى غير ذلك. والصوفية الذين سلكوا طريق التصوف كانوا ملمين بالعلوم الدينية مما يمكنهم من الرد على انتقادات خصومهم، وحتى لا يتعرضوا للانحراف إذا ما تصوفوا مع جهل⁽³⁾، ويرتبط التصوف بالمجاهدات والرياضات النفسية، ويصب جل اهتمامه على الروح، والطريقة الصوفية تنقسم إلى مواقف هي المقامات والأحوال، والمقام والحال اصطلاحان يستخدمهما الصوفي للدلالة على مكانته في الطريقة الصوفية وما يأتيه من رحمة الإله.

والأدب الصوفي هو الأدب الذي أنتجه الزهاد والصوفية بمختلف اتجاهاتها السنية والفلسفية، ويبحث في النفس الإنسانية بعمق فلسفي يسعى لتطهير النفس والروح من حب الدنيا وزينتها وإدخال الطمأنينة إليها، وي طرح في أكمل صورته الفنية التجريدية كوامن النفس من حب وجمال وقيم أخلاقية ومعرفية، وفي مضمونه أيضاً الخطوات التي يتدرجها السالك - المرید -

¹ ابن عربي حياته ومذهب أسين بلاسيوس، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات - دار القلم، الكويت - بيروت 1979..

² التصوف منشأه ومصطلحاته: أسعد السحمراني، دار النفائس، بيروت 1987، ص 62.

³ نفسه، ص 62.

في تطهير نفسه والبلوغ بها مرتبة الكشف، كل ذلك يعكس الروح الدينية العالية عندهم ويظهر ذلك جليا من خلال القصائد المنظمة شعرا أو نثرا فنيا راقى البيان ومن أغراضه: الامتداح النبوي - رسائل الشوق إلى الأماكن المقدسة - الأحزاب والأوراد - التوسلات - الحكم - الرسائل الصوفية (المكاتبات السنوية) - الحكايات الكرمية - شعر الزهد - شعر التصوف السني - شعر التصوف الفلسفي⁽⁴⁾.

وكثير من الأدباء الجزائريين الشعبيين خاصة الشعراء منهم معروفين بإنتاجهم وأسلوبهم، حيث نعرفهم ونحن نقرأ لفحول الشعر الملحون أمثال: مصطفى بن إبراهيم، والمنداسي، وابن مسايب، وابن خلوف، وابن سهلة، والزرهوني، وأحمد بن قيطون، وابن يوسف، والخالدي وبطبجي، وابن مصطفى العلاوي، كل هؤلاء من صنّاع الكلام الرائق الجميل، ونقش أخبار الحدث في الذاكرة الجماعية، حيث ساروا في خدمة الدين والتعبّد له مخلصين له إلى يوم الحشر، والدين بأوسع معانيه من أهم الأغراض التي طرقها الشعراء، لاسيما مدح الرسول (ص)، والتشوق إلى زيارة قبره وإحياء مولده، والتحدث عن معجزاته وعن الإسراء والمعراج وعن القرآن الكريم، وعن جهاد الرسول وغزواته، ويشمل ذلك أيضا الشعر الصوفي والتوجه إلى الله جل جلاله وقت الشدة، والتوسل والتضرع والتشفع وتحذير من هوى النفس ومدح ورثاء الأولياء الصالحين والتوسل بهم.

ولكل شاعر شعبي تقريبا ولي صالح يلوذ بحماه ويتقرب بمدحه، يقول تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَةِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾⁽⁵⁾.

والتطرق إلى موضوعات الشعر الشعبي يسوقنا إلى الكلام عن مظاهر الحياة لدى سكان مستغانم، وصور التمسك بمبادئ الدين الحنيف، وذلك ليس بالغريب عن أهالي المنطقة، فهم كغيرهم من الجزائريين يتميزون بشدة الارتباط والتمسك بالنظم العقائدية، ويقدمون المناسبات الدينية تقديسا مطلقا ويدعون إلى مكارم الأخلاق والصحة في النفوس.

ويمثل أحمد بن مصطفى العلاوي إحدى الشخصيات النادرة التي شكلت معايير عصرها وعقائدها، وهو يملك خطابا ذا خصوصية لا تجعله يقف خارج التاريخ ولا الجغرافيا، أي خارج

⁴ الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عصر الموحدين لنور الهدى الشريف الكتاني، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد الخامس، المغرب 2001، ص 19.

⁵ يونس: 62 - 64.

الزمان والمكان، شأنه في ذلك شأن كل خطاب إنساني، وهو واحد من الشعراء الذين اشتهروا بالكرامات في كل مكان⁽⁶⁾، فمن يكون هذا الولي الصالح ابن مصطفى العلاوي؟.

هو أبو العباس أحمد بن مصطفى بن محمد بن أحمد المعروف بأبي شنتوف، بن الوالي الصالح الملقب بمدبوغ الجبهة، بن الحاج علي المعروف عند العامة بعلوية، وهو المنسب إليه، ابن غانم القادم من الجزائر إلى مستغانم قصد السكن والوظيفة، المشهور بالعلوي، ولد بمستغانم في تاريخ غير متفق عليه⁽⁷⁾، وهو سبع وستون وثمانمائة وألف ميلادي (1867م) عند أحمد توفيق المدني، وعند محمد البوهلي النبال (1873م)، وعند أوغسطين بيرك (1874م)⁽⁸⁾.

تربى الشيخ العلاوي في حجر والده المرحوم سيدي مصطفى بن علوة، وقد اعتنى بتربيته عناية الأب الرحيم والأستاذ الحكيم، فشب طفلاً مهذباً وغلماً ذكياً، وكان وحيداً عند أبيه بين بنتين، وقبل تكوينه في رحم أمه فاطمة - رحمها الله - التي رأت في منامها النبي (ص) وببده الشريفة زهرة النرجس، فتبسم في وجهها ورمى بها عليها، فتقبلتها منه على استحياء، ولما استيقظت روت الرؤيا لزوجها، فبلغها بأنهما سيرزقان بولد صالح، ولم يمر عليها إلا بضعة أسابيع حتى صدق الله رؤياها، فحملت بالغلام إلى أن وضعت.

تأثر العلاوي بالطريقة العيساوية، وبها بدأ حياته الروحية، حيث كان يمارس الرقص البهلواني والحركات العصبية، والتلاعب بالحيات السامة، وحب الخلوة وذكر الله في حركات خاصة، وقد ورد ذلك في قوله عن سيرته الذاتية: "أما صناعة الكتابة فلم أتعاطها، ولا دخلت الكتاب، ولا يوماً واحداً إلا ما استنفذته من أبي رحمه الله عندما كان يلقي علي بعض الدروس القرآنية بدارنا، وإلى الآن لم نحصل على القدر الكافي منها، وانتهى بي الحفظ في كتاب الله إلى سورة (الرحمن) فبقي اللوح على تلك السورة"⁽⁹⁾.

أخذ العلاوي التصوف عن شيخه محمد البوزيدي - صاحب الطريقة الصوفية في مستغانم -، وتصدر بعده لعمارة زاويته، ثم استقل وأسس زاوية خاصة به في مدينة مستغانم، وأخرى في معسكر، غليزان، والجزائر العاصمة، ووهران، حيث يقول: "أول ميل كان قد وقع لي لأهل النسبة على الإجمال تعلقي بأحد الرجال من السادات العيساوية، كنت أراه متعففاً، يظهر عليه آثار الصلح، وبعد ذلك اشتغلت

⁶ ديوان الشيخ عبد القادر بطبجي تقديم وتحقيق عبد القادر غلام الله مطبعة مستغانم، الجزائر 1999 ص4

⁷ أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص 126-127.

⁸ مارسيل كاري، ذكريات الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي، ط2، مستغانم 1987م، ص53.

⁹ ديوان الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي، المطبعة التونسية 1339 هـ، ص20.

بما تقتضيه تلك النسبة اشتغالا كلياً، وأعانتني في ذلك حالة الصبا " (10).

ولا ندري متى أسس هذه الزاوية المستقلة، فبعضهم يجعلها سنة (1910م)، والبعض الآخر يراها في (1909م) وهو تاريخ هجرته إلى المشرق، ومهما يكن من اختلاف فإن الذي لا شك فيه أن نشاط الشيخ لم يظهر إلا بعد (1909م)، وبذلك تكون فترة نشاطه حوالي أربعة عشر سنة (11).

من هنا يتضح أن العلاوي أسس عدة زوايا، فمنها ما حبسه قي حياته، ومنها ما تركه تحت تصرف أعيان أتباعه المقدم، وهذه الزوايا متفرقة في عدة أقطار نذكر منها:

1- زاوية بمدينة تلمسان المتواجدة بدرب الحدادين، قرب مسجد سيدي مرزاق، وهي اليوم تسيير تحت إشراف مقدمها (الشيخ سيدي العربي الشوار) أحد المشاهير بالإصلاح.

2- زاوية بمدينة الجزائر العاصمة، وهي ببوزريعة، وقد حبسها الشيخ العلاوي على مصلحة الإسلام.

3- زاوية بمدينة عنابة، وهي تحت تصرف الأستاذ الشيخ الحاج حسن أحد الطلبة الزيتونيين، الطرابلسي منشأ.

4- زاويته الكبرى بمدينة مستغانم التي شرع في بنائها، وأكملها حوالي 1922م (12).

نشر معظم أفكاره وآرائه وأشعاره في كتيبات، ومطبوعات في الجزائر وخارجها كتونس والمغرب حتى يشد استمالة السامع، وانتباه القارئ ليظهر بصورة موسعة يبيغها خاطر.

ومن مآثره رسالة سماها (القول المقبول فيما تتوصل إليه العقول)، وهي في علم التوحيد، وله منظومة تشمل ألف بيت في العلوم النقلية سماها (الألفية العلاوية)، بالإضافة إلى رسالة وسماها بـ: (مفتاح الشهود في مظاهر الوجود)، كما ألف في التصوف كتاب (المنح القدوسية في شرح المرشد المعين بطريقة الصوفية)، وكانت جل منظوماته متعلقة بالحضرة القدسية، وبعضه بالحضرة النبوية (13).

له ديوان شعري متوسط الحجم، بلغت عدد صفحاته (88) صفحة، به قصائد تفنقر إلى التصنيف العلمي والمنهجي، فهي لم تجمع أو تعرق لا وفق أغراضها الشعرية، ولا وفق أشكالها الفنية، ولا وفق المناسبات التاريخية أو الاجتماعية التي قيلت فيها، وهذه القصائد هي (72) قصيدة صنفت بحسب قوالها الشكلية إلى ثلاثة أقسام: موشحات، أزجال، وقصائد عادية، أما بالنسبة للنسيج اللغوي فإن قسماً كبيراً من

¹⁰ نفسه، ص 21.

¹¹ مارسيل كاري، ذكريات الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي، ط2، مستغانم 1987م، ص 53.

¹² عدة بن تونس، الروضة السننية في المآثر العلاوية، ط2، المطبعة العلاوية بمستغانم 1998م ص 116

¹³ المرجع نفسه، ص 20.

قصائد الديوان غلبت عليه اللغة الفصحى، وقسما آخر طغت عليه العامية.

ويتميز النسيج اللغوي لأشعار الصوفية بصفة خاصة، بجنوحه إلى أسلوب الرمز والإشارة والتلميح، لأنه ينقل في الغالب أحاسيس ذوقية ذاتية، ويصف مشاهد روحية، لا صلة لها بعالم الواقع المادي، خاصة إذا تعلق الأمر بحبهم أو غزلهم الإلهي، فهم يستخدمون ألفاظا غزلية حسية، تتميز بظاهر وباطن، فمن فهمها على ظاهرها جعلها غزلا حسيا إنسانيا، ومن أدرك باطنها، عرف أنها غزل صوفي إلهي، لأنها ليست ألفاظا مقصودة لذاتها، وإنما هي رموز إلى أشياء أخرى⁽¹⁴⁾.

وبناء على ما تقدم، فإن المتصفح لأشعار الشيخ أحمد العلاوي، خاصة شعره الغزلي، يجد أنه اتكأ على الأسلوب الرمزي موظفا جملة من الرموز والإشارات، نذكر منها: الحب الإلهي، الأعلام، الخمرة، وغيرها.

يتبوأ معجم الذات الإلهية في شعر أحمد بن مصطفى العلاوي فضاءً واسعاً، فهو يتوزع بشكل متفاوت على الخطابات الشعرية التي تصب نحو معاني التعبد، الاستغفار، والتوبة... وتمثل كلمة " الله " أكبر نسبة من حيث الاستخدام، وكذا " الرب "، " الخالق "، وغيرها من الأسماء الحسنى، وعلة هذه الكثرة هي اعتبار الذات الإلهية أكبر ملجأ للشاعر الديني، فهي تارة السند، والعون، وتارة عين المناجاة، والرجاء، والعبادة، باعتبارها أقوى ما في الوجود وأعظم من كل عظيم .

والحب الإلهي، حال من أحوال الصوفية يتعلق بالذات الإلهية المقدسة، وينشأ من مطالعة جمالها المطلق، وهو هبة من الله لمن يشاء من عباده⁽¹⁵⁾، يقول العلاوي:

أذكر الله يا رفيقي وتوجد للمرام⁽¹⁶⁾

والشيخ العلاوي أحد أقطاب المتصوفة الذين تغنوا بالحب الإلهي وفنوا فيه، إذ خصص لهذا الغرض العديد من القصائد، وظف فيها جملة من الرموز، كاتخاذ اسم ليلي رمزا للذات الإلهية، يقول في موشحة "دنوت من حي ليلي":

¹⁴ يحي بعبطيش، التربية والمعرفة في مآثر الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي، جمعية الشيخ العلاوي للتربية والثقافة الصوفية، ط1 مستغانم 2002م، ص171.

¹⁵ المرجع نفسه، ص172.

¹⁶ الديوان، ص17.

دنوت من حب ليلي لما سمعت نداها
يا له من صوت يحلو اود لا يتناهى
رضت عني جدبتي أدخلتني لحماها
أنستني خاطبتني أجلسنتي بحذاها (17).

استعمل العلاوي اسم ليلي كرمز للذات المقدسة بضمير ال من بداية القصيدة إلى نهايتها، ليصور لنا تعلقه وهيامه بها، بحيث يستحضر القارئ أو المستمع صورة "قيس" ذلك العاشق الولهان، وقد نجح الناظم في نقل هذه المعاني الحسية من الغزل العادي إلى الغزل الإلهي، بحيث أضحت معاني روحية صرفة، فحب ليلي هو رمز الحضرة الإلهية، والقرب أو الدنو من ليلي هو القرب من ذات الله تعالى، ورفع الرداء رمز لانكشاف الحجاب، وكذا ألفاظ الأنس والحضور الغيبية، ليست إلا رموزا تعكس لنا بصدق، شوق الشاعر وتعلقه بالله وحده، وانقطاع قلبه عن كل شيء إلا عن محبته.

ويحفل شعر العلاوي بأسماء الأعلام التي أصبحت راسخة في الذاكرة الشعبية، وشخصية الرسول (ص) هي الشخصية الأكثر شعبية وتقديسا من بين الخلق عند المسلمين، وأكثر الأسماء التي وردت في قصائده "محمد"، "الأمين"، يقول العلاوي:

من رسول الله كان يا قوما إذ قال لي بشراك يا غلام
صليت صلاة ترضيه عن خصه واجتباه
يا رب صلي عليه صلاة تشمل معناه (18).

وقد تغنى الشاعر بالخمرة، فوصف صفاءها وكؤوسها، وتحدث عن قدمها وأثرها في نفس صاحبها الذي ينتهي به إلى السكر أو العرودة أحيانا وغيرها، غير أن ذلك كله من قبيل الرمز ولا علاقة له بالخمرة الدنيوية، وسرعان ما يحيل مفهومه للخمر والشرب في قصائده الدينية إلى دلالات ومفاهيم رمزية، وهذا بحسب السياق، حيث يتردد مصطلح الشرب عند العلاوي كثيرا في ديوانه، حيث يقول في إحدى قصائده:

¹⁷ العلاوي، الديوان، ص 36.

¹⁸ نفسه، ص 43.

فما أحلى شرب القوم نخبر بطعمه فليست أعني خمرا ولست أعني عسلا
شراب قديم النعت تعجز عن وصفه فجل في ذاته أن يشاكل الشكلا⁽¹⁹⁾.

تعتبر الخمرة معينة خصبا يمتدح منه شعراؤنا ليبدعوا منه صورا شعرية، يرمزون بها إلى بعض المواقف الإنسانية البارزة، كموقف الحب والغرام أو موقف السعادة والنشوة وبخاصة في قصائد المديح، فعنصر الخمرة يكاد يكون أساسيا في شعر النسيب، إذ لا تستوي مجمل الصور بدون ألوان تنتزع منه، وهي مثل عنصر المرأة، فقد ترد في القصائد حقيقة وقد ترد رمزا، وقد تغلغت المعاني المشتقة من الخمرة في مختلف الأغراض الشعرية، فتسربت إلى الشعر الصوفي والمديح النبوي، والمديح الإخواني ثم الولوي، إذ أقام المتصوفة شعرهم على استحياء معانيهم من الخمرة، فوجدوا فيها الوسائل القمينة بالتعبير عن عالمهم الخاص خاصة عند العلاوي، وإذا كانت الخمرة في الشعر الصوفي رمزا للحب الإلهي لأن هذا الحب هو الباعث على أحوال الوجد والسكر المعنوي، فإنها لدى العلاوي لم تكن تقف عند هذا الحد فقط، وإنما كانت تتجاوز هذا الحب الإلهي إلى الحب البشري، ولكن هؤلاء البشر من شريحة اجتماعية معينة، وهي شريحة الأولياء، والفقهاء ورجال العلم والدين، فإذا وقفنا مثلا عند قوله:

سقوني وقالوا لا تغن ولو سقو جبال حنين ما سقوني لغنت
سقوني بكأس من لو أهدي سنه إلى اجبال منه نصيب لدكت
سقوني شرابا قديما كان مزاجه غراما وتبريحا ووجدا وحيرة⁽²⁰⁾.

نراه يستخدم الكأس رمزا للسقاية والشرب، فالعلاوي لا يقصد شرب الخمر بتاتا، وإنما يريد الاستقاء من الشيوخ العارفين بالله، والسير في طريقهم، فالخمرة من خلال كل هذا تعد رمزا للعشق الإلهي، ولذتها مصدر للارتياح والشعور بالسعادة.

إن توظيف العلاوي هنا للخمرة وما رافقها من عناصر كالساقى والكأس يعبر عن مدى تعلق الشاعر بالممدوح، وولعه بعلمه وسعة اطلاعه، ولعل الشاعر بهذا الرمز يهيم في عالم من الوجد والسكر المعنوي ويسبح في فضاء تتسامى فيه الروح لتترفع عن دنايا الحياة وقبورها إلى رحاب الانطلاق والتحرر من تلك الدنيا.

¹⁹ نفسه، ص 43.

²⁰ العلاوي، الديوان، ص 43.

وعنصر الخمرة هنا بما رافقها من أدوات كالساقى والكأس لا تعدو أن تكون رمزا لما يجمع بين الشاعر وممدوحه من محبة وروابط العرفان والتدين، كما أنها رمز لمصدر السعادة التي تغمر الشاعر، وهو يحظى بالتلمذة على يدي شيخه، والخمرة هنا رمز للنشوة التي تغمر الشاعر وهو يختم بعض المتون العلمية سواء على شيخه هذا أو على غيره من الشيوخ المتضلعين.

وقد سار العلاوي في المحبة والعشق على الطريقة الصوفية التي تتطلب أن تُفرغ قلبك من أي فكر أو ذكر سوى حبيبك ومعشوقك، فالمحبة الصوفية هي محبة محضة خالصة وحيدة يتيمة لا شراكة فيها وعلى كل المستويات، بل في الحقيقة لا نستطيع أن نفهم الاعتذار الذي قدمته رابعة العدوية مناجية النبي (ص) بأن حبُّ الله لم يُبق في قلبها مكاناً يسع غيره، لا نستطيع أن نفهمه إلا على هذا المعنى فقط، فالشاعر بطبجي سار على درب شيخه عبد القادر الجيلاني في المحبة الإلهية التي بها يحصل للنفس الطرب والسرور بما هي فيه من اللذة الروحانية وما يشغلها عن الشعور بما فاتها من اللذات الخسيسة، وعند ذلك تتوجه إلى حب اللذات الروحانية ويصير حبها للصفات المعنوية أكمل إلى أن تتبرم بما كانت فيه من قبل، ومن قوله:

الحب في الهوى عربد والمعنى لها شهود
والعقل حاكم ينفد تأمل سعد السعود⁽²¹⁾.

استخدم العلاوي الألفاظ الغرامية بمثابة الرمز الإيحائي الدال على مكانة الممدوح عنده، فالمحبة عند الشاعر هي أن تهب كلَّيتك لمحبتك فلا يبقى لك منها شيء، واللذة الحاصلة للمحب عند تصوّر حضرة محبوبه هي أعظم من لفظ الابتهاج، ناهيك من لذة هي لذة الملائكة المقربين وخواص أصفياء الله العارفين، فهي أعظم من أن تمر على الخاطر.

إذن المحبة هي أن يتم محو كل شيء من قلب المتصوف حتى لا يبقى به شيء سواه جلّ شأنه، وهي الإبتهاج عند تصور محبوبه، فالحب عند الشاعر بطيجي المتصوف هو أسمى أنواع الحب على الإطلاق، لا يشارك المحبوب في قلب المحب أحدٌ أو شيء أو فكرة أو رغبة أو رهبة أو طلب أو دفع، لا شيء إلا المحبوب، وعلى هذا المعنى أتت عبادة المتصوفة.

²¹ العلاوي، الديوان، ص 34.

